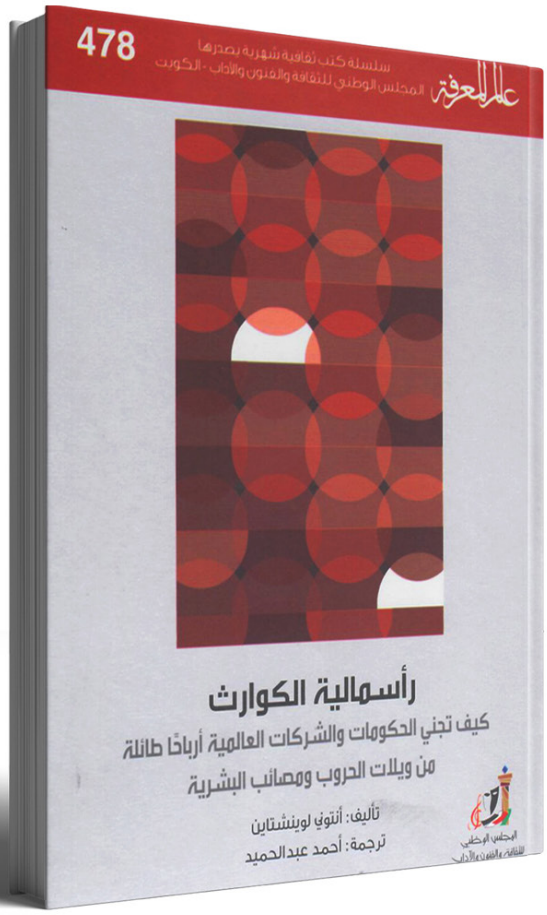

عرض كتاب "رأسمالية الكوارث: كيف تجني الحكومات والشركات العالمية أرباحاً طائلة من ويلات الحروب ومصائب البشرية"

لمؤلفه نتوني لوينشتاين

إعداد: مبشر شيبون

تاريخ النشر: 11 / 05 / 2021م

«إن فهم السبب وراء ما يحدث في القرن الحادي والعشرين يتطلب تحدياً لمعتقدات راسخة في الأذهان بخصوص المعونة والتنمية، والحرب والديموقراطية، وعلى نحوٍ خاص طبيعة الرأسمالية الحديثة التي لا تعترف بالحدود الجغرافية»

مُحاولاً أن يفُك قيود الخداع، ويحرر الأمم من براثن الزيف، نطق الصحفي الأسترالي الألماني الملحد اليهودي المناهض للصهيونية «أنتوني لوينشتاين» كما أحب أن يعرف نفسه في إحدى الفعاليات التي أُقيمت في اليونان، بهذه الكلمات في مقدمة كتابه الصادر في عام ٢٠١٥، وترجم عن عالم المعرفة في نوفمبر من عام ٢٠١٩، الذي عُنون ب»رأسمالية الكوارث: كيف تجني الحكومات والشركات العالمية أرباحاً طائلة من ويلات الحروب ومصائب البشرية»، قاصداً في كتابه أن يلج بنا من نفس الباب الذي طرقته قبله في عام ٢٠٠٧ الصحفية الكندية نعومي كلاين في كتابها الموسوم ب» عقيدة الصدمة: صعود رأسمالية الكوارث»، الذي كان مُجليّاً للنهب المقنن

للدول الفقيرة من قِبل الدول الكبرى والشركات العابرة للقارات، فوّسع في كتابه آفاق النظر، وزاد الشواهد على النظام الرأسمالي، فإن كانت نعومي كلاين قد بيّنت استغلال النظم للكوارث البيئية والحروب والتكاليف الخفية للمعونة الأجنبية، فتوسع هو في كتابه ليشمل أيضاً نتائج خصخصة قطاع الموارد ومراكز الإعتقال.

وقد كانت نعومي كلاين في كتابها قد سلطت الضوء على سياسيات مدرسة شيكاغو الاقتصادية، وهي أحد أهم واجهات الفكر النيوليبرالي، التي تعتبر إحياءً وترميماً لليبرالية الكلاسيكية التي وصفها آدم سميث، بدعوتها للخصخصة والحد من دور الحكومة أو ما يسمى بحكومة الحد الأدنى، والوقف الحاد للإنفاق الحكومي، بزعم أن تلك السياسات قادرة على حفظ السوق، وإن ألمّت به أزمة، فما هي إلا بُرهة وتأتي اليد الخفية تطببه بمبضعها، وتعود الأمور إلى نصابها.

وكانت هذه الأفكار منذ إنتهاج الوصفة الكينزية الداعية لتتدخل الدولة لعلاج أزمة الكساد الكبير، لا تبرح قاعات التدريس ولا تتعدى أسوارها، رغم إن معاداتها للكينزية ما هدأت، فهاهو فريديك هايك في منتصف الأربعينيات يكتب كتابه المشهور «الطريق إلى العبودية» واصفاً تتدخل الدولة بأن نهايته إستعباد وأوريلية جديدة (نسبة إلى جورج أوريل كاتب رواية ١٩٨٤). ولكن كُتب لهذه السياسات أن تكون محط الأنظار وقِبلة المضطرين، عندما حلّت أزمة اقتصادية في السبعينات آخذة بخناق الكينزية فعجزت عن الفرار، فبدأ الناس يهرعون إلى صبيان شيكاغو وسياستهم تلك، فأرجعوا جذور الأزمة إلى تدخل الدولة في السوق، وكثرة الإنفاق الحكومي، مما حال بين مبضع اليد الخفية والداء، وهذه الأفكار غدت هي المسيطرة على سياسات صندوق النقد الدولي.

فأشارت نعومي كلاين إلى أن سياسات هذه المدرسة أضحت تستغل الكوارث بل وتنتجها لتحقق مآربها، لعلمهم أنها ستُجَابه من المواطنين لشدة وطئتها عليهم، فبات ديدنهم استغلال الخوف والهلع بل وخلقهما عمداً لتنزيل سياساتهم الهادفة إلى فتح الأسواق للشركات الأجنبية حتى ترتع في البلاد نهباً لثرواتها وسلباً لجهود مواطنيها، وتحقق ثروات طائلة على أكتاف أولئك الفقراء. فتصف نعومي كلاين شعار الرأسمالية الجديدة بقولها: «الخوف والفوضى هما محفزّان لكل قفزة إلى الأمام». وقد تظن عزيزي القارئ أن هذه الكلمات إتهام يُنكره صبيان شيكاغو ويتبرئون منه، لكن الحقيقة غير ذلك!. فهاهو الوجه الأول في مدرسة شيكاغو ميلتون فريدمان في كتابه المشهور «الرأسمالية والحرية» يقول بكل صراحة في تمهيده للكتاب مُقِراً بذلك: «ولن يتحقق التغيير الحقيقي سوى بالأزمات». وفكرته في الأزمات تلك مستوحاة من تجارب الطبيب النفسي أيوين كاميرون المدعومة من الإستخبارات الأمريكية التي كانت تهدف لمحو الذهن البشري عبر الصدمات الكهربائية المتكررة، لإستخدامها مع المحتجزين والمعتقلين، وهذا ما تبنّته مدرسة شيكاغو بخلق صدمات سياسية

واستغلال صدمات الكوارث الطبيعية وما تبُثه من خوف وهلع.

ومن هنا يبدأ كتابنا الذي بين أيدينا ليكمل سرد ما بدأته نعومي كلاين من نتائج تلك السياسات من خلال ذكره لتجارب عدد من الدول التي وقعت في شِراكها.

«الصفحات التالية في هذا الكتاب تعجُّ بالحكايات عن الجشع الغربي الذي تنعكس آثاره المدمرة على دول وأشخاص تعتبرهم وسائل الإعلام العامة غير مرئيين»

ومن بعد هذه الكلمات ينطلق بنا المؤلف بمزجه بين السرد القصصي والإستقصاء الصحفي، ليُرينا العالم من أعين أولئك الذي باتت الأنقاض مسكنهم، والجيّف مطعمهم إن وجدت!، الذين تتعامى عنهم أعين الإعلام المؤدلج الذي ما إنفك يخدم أجندة الرأسماليين ليعظم ثرواتهم، فيُرينا العالم من أبراجهم ويتجاهل كيف بُنيت، فيأتي المؤلف ليميط اللثام عن الوجه القبيح لتلك الحضارة.

يقسّم المؤلف الكتاب على جزأين، عارضاً في جزءه الأول أكثر الأمثلة فضحاً للاستغلال الذي أرتكبته الدول والشركات، فيبدأ ببأكستان وأفغانستان اللتين كانتا ميدان الحرب ضد الإرهاب المزعومة، مبيّناً أن المال هو من الأسباب الرئيسية لإستمرار تلك الحروب، لأن من مصلحة شركات الأمن الخاصة المُوكّلة من حكومة الولايات المتحدة لإدارة هذه الحروب استمرار الحرب، فقد كانت الأرباح هي غايتها لا السلام، فأثبت أن هذه الشركات كانت تدعم المتمردين لحماية قوافلها والسماح لها بالمرور، مما زاد من قوة المتمردين وهذا ما كانت تهدف الولايات المتحدة لضده، فيسعنا تلخيص هذا في العبارة التي نطق بها بكل هدوء وجرئة مدير إدارة إحدى الشركات الأمنية قائلاً للوينشتاين: بأن شركته «تبقى على قيد الحياة بفضل الفوضى»!.

ثم ينتقل من بعدها إلى جنوب شرق القارة العجوز إلى اليونان التي أضمرتها سياسات التقشف، دونما رأفة بمواطنيها وما بلغوه من وطئة الفقر وسوء البنى التحتية والنظم الصحية، مُشيراً إلى أن وطئت الفقر هذه هي من الأسباب الرئيسية لمعاداة اليونانيين للاجئين القادمين بدعوى أنهم سبب ذلك الفقر كما تزعم ذلك بعض الأحزاب وتصرّح به، ولم يعلموا أنهم يطنعون ظل الفيل القابع في بروكسل. فإطراداً مع قوانين التقشف والخصخصة تلك، قاموا بخصخصة مشاريع إحتجاز المهاجرين وطالبي اللجوء، فجاءت الشركات العالمية لتستغل هذه الأزمة وتحقق أرباحاً طائلة وذاك دأبهم. ونتيجة لذلك حدثت كثير من الإنتهاكات دون رقيب، وكان اللاجئون يُحتجزون لفترات تتعدَّ الحد الأقصى المسموح به قانونياً، ولا يخفى عليك عزيزي القارئ أن غاية فعلتهم تلك هي كسب المال، لأنهم يتلقون المال من الدولة على كل رأس، فغايتهم أن تعمل مبانيهم بأقصى طاقتها، في إستعاب أكبر قدر ممكن، وليس مساعدة اللاجئين لهم بهدف. فيقول المؤلف ملخصاً حال اليونايين بعبارة عضو إحدى حركات

المقاومة: «من الواضح أننا، بالنسبة إلى الحكومة اليونانية وإلى مجموعة الترويكا، مجرد أرقام، ولسنا أرواحاً بشرية».

ومن بعدها حلّق بنا إلى أفقر دولة في النصف الجنوبي من الكرة الأرضية، حل بها زلزال في عالم ٢٠١٠ أحدث دماراً هائلاً، وأعداد كبيرة من القتلى، إنها هايتي. ليسرد في أسى ما فعلته عواصف الشركات بهذا الشعب وموارده من دون رأفة، لافتاً لنوع جديد من الاستغلال عن طريق المنظمات غير الحكومية، وأنهم يحققون الأرباح عن طريق نشر معلومات كاذبة حول الحوادث، كما فعلوا في زيادة عدد القتلى في إحصاءتهم أكثر من الواقع لكي يحصلّوا دعماً أكثر، وهو ما لا يرى منه الهايتيين شيئاً. ومما زاد الأمر سوءً على هذا الشعب المنكوب هو وجود القوات الأممية، حيث «أُتهمت بإرتكاب إنتهاكات لا تُعد ولا تحصى، بما في ذلك قتل ما يزيد على ثلاثين من الهايتيين في مجتمع «مدينة الشمس» في العام ٢٠٠٦، فضلاً عن الإغتصاب المزعوم لرجل على أيدي الجنود»، فكانت القوات الأممية مثالاً لقوى أجنبية تفرض إرادتها على هايتي. فتأكد البرقية التي سربها موقع «ويكيليكس» الأجندة الحقيقية التي كانت وراء قوة الأمم المتحدة. « إذ شرحت وثيقة تعود إلى العام ٢٠٠٨ مرسلة من السفيرة الأمريكية لدى هايتي، جانيت أي. ساندرسون، كيف كانت قوة «مينوستاه» (القوة الأممية لتثبيت الإستقرار في هايتي) أداة لا غنى عنها في تحقيق المصالح الجوهرية لسياسة الحكومة الأمريكية في هايتي.

وجادلت السفيرة بأن أحد التهديدات الرئيسية التي ساعدت مينوستاه في معالجتها كان تجدد الصعود المتنامي للقوى السياسية الشعبوية والمناهضة للاقتصاد الحُر، والتي يمكن أن تقلب دفة المكاسب التي تحققت». فتلك هي حقيقة القوات الأممية، وأظن أنه بعد هذا النقل يبدو واضحاً أنها ليست بالجهة المُحايدة كما يُدعى، فلا يأيّد قدومهم إلى بلدٍ ما إلا سفيهٌ بان سفهه أو عميلٌ خان وطنه ولا أجد ثالث. فوصفاً لما وصلت إليه هايتي يقول باترك إيلي وهو ناشط هايتي ووزير سابق للأمن العام، فكان يدرك جيداً نفوذ الغرباء من أصحاب المصلحة الذاتية في بلاده: «هايتي تخضع لسيطرة حكومة أجنبية ومصالح أجنبية، والتي يُطلق عليها اسم المجتمع المدني».

ومن بعدها إلى الدولة التي أنفصلت من أستراليا، بابوا غينيا الجديدة، النائمة على ثروات لا حصر لها من المعادن، فما كان لسكان أقليم بوجانفيل أن يسيقظوا إلا بالتلوثات التي أحدثتها مناجم الشركات، فلوثت الأنهار وأفسدت الأرض التي كانت خضراء يوماً، فأضحت يباباً غِفاراً لا حياة فيها، والشركات لا تعبأ ولا تبالِ بمثل هذا، فغايتهم المال، مما قاد سكان الإقليم إلى مقاومة مسلحة لمنع تلك الشركات، ونجحوا في ذلك، بعد تضحيات كبيرة في الأرواح، وبدأت المفاوضات معهم من قِبل حكومة دولة بابوا غينيا المدعومة من أستراليا، وكلهم متواطئين مع الشركات الأجنبية هذه، حيث بلغ الأمر أن تلك الشركات كان تأتي بالأسلحة لحكومة بابوا غينيا لكي يقضوا على السكان

المعترضين!!.

وبعد فراغه من الجزء الأول، ينتقل إلى الجزء الثاني حيث يتحدث فيه عن ثلاثة من أهم الدول في عالم المال، وهي المملكة المتحدة والولايات المتحدة الأمريكية وأستراليا، ليحكي في أسى ما بلغته هذه الدول من إنعدام العدالة في تعاملهم مع طالبي اللجوء، حيث كان الأمر يوكل إلى الشركات الخاصة، التي تبحث عن الأرباح، فتحتجزهم في أماكن غير صالحة للعيش، ودون رعاية صحية كافية، فيمكثون فترات طويلة دون جريرة أقترفوها سوى أنهم ينتظرون رد من الحكومة حول موافقتها من العدم. وقد بلغت شركات الإحتجاز تلك أوج استغلالها في الولايات المتحدة، مستفيدة من تزايد حالات القبض على المواطنين خصوصا السود منهم لأتفه الأسباب، حتى أضحت أرض الأحرار دولة للسجون كما أشارت منظمة «هيومان رايتس ووتش».

فكأنما أراد في هذا الجزء من كتابه، أن يبصّرنا بعورات تلك البلاد التي يشير إليها بعضهم بالبنان كمثال يُحتذى به، أنها حتى هي لم تسلم من إستغلال الرأسماليين بل رسخت له، وأن المال فيها مُقدمٌ على الفرد، كأنما يريد أن يقول من كان هذا حال داره، هل تخاله يشيّد لغيره خيرًا منها؟!، حتى نعي من ذلك حقيقة إستغلالهم لموارد الدول التي شهدناها في الجزء الأول من الكتاب، ليقول ما كان ذلك منهم لمحض صدفة بل ذاك أصل الفكرة. فجلّى بذلك حقيقة هذه الحضارات التي كانت تتخفّى خلف تبرجها في الإعلام بأبراجها العالية وسواحلها المكتظة وفيّها المصطنع.

وبعد هذا السرد عزيزي القارئ وقد أدركت أن الأزمات والكوارث هي ميادين هذا النظام النيوليبرالي ليفرض سياسيته وترتع شركاته، ألا يُخامرك تساؤل يقول:

ألسنا نمر بأزمة صحية عالمية؟! أليست فرصة جيدة لذاك النظام؟! أليست فرصة على طبق من ذهب للحكومات لتحقيق ما كانوا يعجزون عنه في غير الأزمة؟!

بالطبع بلى، فذلك ميدانهم، وهل تعلم العوان الخمرة!، فهاهي نعومي كلاين تبيّن في مقالٍ لها في أوج هذه الجائحة، ما يحدث في الولايات المتحدة من إستغلال لهذه الأزمة وإلى أي درجة كان يمكن أن يصل هذا الإستغلال: «يتوقف الاقتصاد العالمي في مواجهة صدمات متتالية. وفي خضم هذا الذعر واسع الانتشار، تقوم جماعات الضغط التابعة للشركات بكل أشكالها، بالطبع، بنفض الغبار عن جميع أفكارها. فيدفع ترامب بتعليق ضريبة الرواتب، وهو ما يمكن أن يُفلِس نظام الضمان الاجتماعي، ويوفر العُذر لتقليصه أو خصخصته بالكامل - وتلك فكرة كانت موجودة منذ فترة طويلة. فكرة كانت تدور في فلك الديمقراطيين والجمهوريين على حد سواء»، «إننا نعلم ما هي خطة ترامب: عقيدة صدمة قائمة على انتشار الوباء، تضم جميع الأفكار الأكثر خطورة، من خصخصة الضمان الاجتماعي إلى إغلاق الحدود إلى حبس المزيد من المهاجرين. بل إنه قد يحاول، ويا للجحيم، إلغاء الانتخابات». فعندما

تدرك ذلك عزيزي القارئ، لن تتعجب عندما تجد بعض الحكومات والشركات، تستغل هذه الأزمة وهلع الناس وخوفهم. فلا يُستغرب من الذئب أن أفترس الغنم، فذاك طبعه، بل يستغرب منه إن خالله ونادمه!، فهم لا ينظرون للفقراء وبلواهم، بل غايتهم جمع المال، وتنفيذ مطالب صندوق النقد الدولي، الذي ترسخت السياسات النيوليبرالية بشدة في حمضه النووي، «وهذه الأيديولوجيا النيوليبرالية تولي المال أولوية أعظم من حياة الناس».

وبعد هذا السرد الطويل، وفي الكتاب مزيد تفيصل، فأهم ما قام به الكاتب أنه كان يعقد مقابلاته مع المتضررين أنفسهم، وكل تلك الدول المذكورة شدّ إليها الرِحال بنفسه ليرى الأمور بعينه لا بعيون غيره، فأبان فشل سياسات التقشف، وإباحتها لتوسع سلطة الشركات العابرة للقارات، دونما أي إعتبار لذلك المخلوق الذي يتهادى بثيابه الرثّة مجرجراً فقره متوكئاً على بقايا أمله في العثور على مَن يشدُّ على يده، ويعينه على صروف الدهر ونوائبه. فتدرك بجلاءٍ بعد تصفحك للكتاب أن سيف اليد الخفية الذي يزعمونه قد نبأ، وأن خيوط تلك اليد باتت في أيدي حفنة من الأثرياء، يوجهونها كيفما شاءوا، فيجزلون العطاء لأنفسهم ويحرمون سِواهم، ولا يئبهون لحالهم، بل مباحٌ قتلهم وتشريدهم من أجل مزيد من الدولارات. وما ذاك إلا مصداقاً لقوله تعالى: (كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَىٰ * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَىٰ).

وبعد كل هذه الشواهد، مازالت بعض نخبنا لا تُخفي شغفها وولعها بتلك الدول وقواتها وسياستها، وترى طوق النجاة فيها، على الرغم من فشلها المريع، وعَورها الجليّ، وما ذاك إلا لأن قلوبهم وعقولهم ما زالت تحت ربقة الاستعمار، فما فتئوا يقدّمون هوياتهم وموارد الوطن وفقراءه قرابيناً للعم سام وشركاءه، متزلّفين لمَن «ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِۦ لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ».

وختاماً إن هدف المؤلف أبانه في خِتام مقدمته قائلاً: «هذا الكتاب يهدف إلى إحداث صدمة، وإستفزاز، وإماطة اللِثام عن عالم تطور خُلسة» وأراه قد أصاب كبد مرماه وما جانبه، وحسبنا تلك الأمثلة لنتعظ، ولو أننا أردنا أن نذكر كل جرائم تلك النُظم والشركات، لضاقت علينا طروس الأرض وقراطيسها، وجَزَر عنّا المداد، فيكفي اللبيب أشارةً ليفهم. والفائدة التي تُرجى من هذا النوع من الكُتب، أنه يجعل قارئه مُدركاً لمآلات هذه السياسات، ليتأهب للتوقيّ منها ما أستطاع، محاولاً إنتاج حلولٍ تكون فيها نجاة الجميع، لا نجاة تلك الحفنة من الأثرياء، على ظهور وأكتاف المسحوقين.